هكذا طُلِبَ منا الانضمام إلى حزب البعث

السُلطة لا تُغير الأشخاص
هي فقط تكشفهم على حقيقتهم

جوزي موخيكا - رئيس الأورغواي

أوكرانيا... وتُلفظ أوكرايينا وعاصمتها مدينة كييف الخضراء، بلد السهول والخصب والأنهار والجمال يقطنها حاليًا اثنان وأربعون مليون نسمة، وهي أحد مؤسسي الاتحاد السوفيتي عام ١٩٢٢، وبقيت ضمن جمهوريات الاتحاد السوفيتي حتى انهيار المنظومة الاشتراكية وتفكك الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١ حيث أصبحت جمهورية مستقلة بنظام مختلط نصف برلماني ونصف رئاسي.

عام ١٩٧٣ استقليت القطار أنا وواحد وعشرون طالب بعثة رسمية بصحبة ضابط عراقي برتبة ملازم أول، رافقنا من موسكو إلى وجهتنا الأخيرة إلى العاصمة الأوكرانية كييف، هذه المدينة الجميلة التي تخلب مناظرها اللب وتجعل الرائي يُحلق في أجوائها طربًا، بعد مسيرة ليلة كاملة بين الغابات الكثيفة الخضراء وصلنا العاصمة كييف، حيث استقبلنا عدد من ضباط الأكاديمية التي بقينا فيها مدة خمس سنوات لاحقة.

كييف مدينة عصرية جميلة خضراء مترامية الأطراف، تقع على ضفاف نهر الدنيبر الذي يقسمها على طولها، يتوسطها مركز المدينة الذي يشقه شارع رئيسي عريض يُدعى (الكريشاتيك)، تنتصب في هذا الشارع الفنادق الراقية والمطاعم الفاخرة ومجمعات التبضع الكبيرة على جانبيه، نهاية الشارع تصل إلى حافة نهر الدنيبر العظيم حيث يطلُّ على ضفافه الشاهقة تمثال للشاعر

الأوكراني الشهير شيفجينكا كحارس أبدي، ورغم برودة شتائها إلا أننا تأقلمنا مع جوها البارد سريعًا.

الأكاديمية الهندسية العسكرية الجوية العليا في كييف تقع في إحدى ضواحيها بالقرب من ساحة تدعى (رواد الفضاء)، وهي عبارة عن مجمع عسكري كبير يحوي على عدة كليات عسكرية ومن ضمنها كلية الأجانب التي درسنا فيها، كما تضم منطقة سكنية مخصصة لذوي العاملين وتلتئم على فندق راقٍ نسبيًا اعتُمد مقر لإقامتنا.

استُهلتْ دراستنا بتعلم اللغة الروسية التي لم أكن أعرف أي شيء فيها، كانت معلمتنا ناتاليا الكسييفنا امرأة في أواسط العقد الثالث من عمرها، ذات وجه نوراني دائري فائق الجمال وأنف دقيق مستقيم، بشرتها الناعمة البيضاء تتحدى لون الثلج الروسي، كشلالات نياغارا ينساب على كتفيها شعرها الأسود الفاحم الناعم، فارعة الطول مُكتنزة الجسم وعلى قدر كبير من الدلال والرِّقة.

لم تمضِ أيامٌ حتى انضم إلى مجموعتنا ضابط عراقي آخر برتبة ملازم أول يُدعى (أ.ر)، وهو نفس الضابط الذي أخبرني في بغداد عن قبولي في البعثة، كان انضمامه من أجل أن يكمل دراسة الهندسة في مجال تخصصه السابق، مع صفة إضافية هي مسؤول حزبي للبعثة.

الضابط (أ.ر) طويل القامة أسمر اللون معتدل البنية شعره أسود فحمي مُجعد ذو شاربان كثيفان يُغطيان فمه، ينحدر من محافظة البصرة ولا يمتلك شهادة تعليم جامعية مثل باقي ضباط الجيش العراقي الآخرين، وأمثاله يُطلق عليهم بالعُرف العسكري العراقي ضابط (مَسلكي)، هذا يعني أنه أصلاً كان نائب ضابط وتم منحه رتبة ملازم بعد اجتيازه دورة سريعة خاصة بالحزبيين البعثيين، في محاولة من حزب السلطة في السيطرة على مفاصل الجيش وزيادة تنظيمات الحزب فيه، كان سريع الحركة، طموحًا، سريع الحكم على الأشياء،

ويمتلك دهاء وأساليب يتميز بها نواب ضباط الجيش العراقي التي يعرفها جميع العراقيين جيدًا، كما كانت له نظرة خاصة في التعامل مع طلاب البعثة.

في ظهيرة أحد الايام الدافئة نسبيًا بأشعة الشمس الأوكرانية الخَجِلة؛ استدعى الملازم أول (أ.ر) جميع الطلاب إلى اجتماع عام في بهو الفندق النظيف دومًا، والمُخصص لعقد الاجتماعات والاستراحة ومُشاهدة التلفاز، والذي يحتوي على أثاث تقليدي مُريح ومُرتب. بعد أن جلس جميع الطلاب دخل الضابط وهو يحمل كتيبات عديدة ربما كانت بعدد أفراد البعثة، وضع الكتيبات على الطاولة العريضة المزركشة التي أمامه، اعتدل في جلسته على كرسي قيصري وثير، بدأ بسَرد منجزات ثورة السابع عشر من تموز وفق منظوره (الانقلاب العسكري وفق المنظور العام)، ويشير إلى مبادئ حزب البعث الحاكم، وعن الاهتمام الكبير الذي توليه القيادة السياسية للشعب بكل فئاته.

أضاف أن (الثورة) سائرة بالوطن والشعب نحو الحرية والرفاهية والعيش الرغيد، وخير دليل على ذلك هو انتقاؤنا في هذه البعثة التي سُميت (بعثة البكر) لتكون نواة لقوة جوية حديثة في الجيش العراقي المعاصر، بعد هذه المقدمة قال: [إن حزب البعث حزب ديمقراطي ويؤمن بحرية الفكر، وأن الانتساب إليه هو ذاتي وطوعي ودون إكراه، ولذلك فمن يرغب في الانتماء للحزب ما عليه إلا أن ينهض ويتناول كتيبًا من هذه التي على الطاولة، وبهذا تتم عملية انضمامه الرسمي للحزب].

كنت أستمع له غير مقتنع بما يتحدث به، قافلاً بذاكرتي على الأحداث التي حصلت بُعيد انقلاب الثامن من شباط عام ١٩٦٣، حين ألقى الحرس القومي القبض على أبي وقاموا بإهانته وتعذيبه، استحضرت كل تلك الذكريات بشريط سريع مرَّ عليّ وصرت أسأل نفسي ما السبيل وكيف التصرف في موقف يتطلب القرار سريعًا؟ لم أكن أرغب بالدخول في مُعترك السياسة المقيت، فأنا لم أحب السياسة يومًا ولم أرغب إطلاقًا التورط بها.

بقيت متوترًا حائرًا مترددًا، واستمرت حيرتي وازداد قلقي أكثر حين بدأ الطلاب بالنهوض واحدًا تلو الآخر، يتناول كل منهم كتيب من على طاولة الضابط ثم يعود لمكانه، علمًا أنَّ بعضهم بالأصل كان حزبيًا، ماذا سيحصل لاحقًا؟ وهل سيبقى أحد آخر جالس فيشاركني موقفي؟ مرَّت الدقائق ثقيلة وأنا متسمر على كرسي، يا إلهي كم كنت أتمنى أن يبقى بعض من الطلاب على كراسيهم غير آبهين بهذا الموضوع لأكون من ضمنهم، نهض آخرون ولم يبقَ إلا ثلاثة ثم اثنان... وأنا غارق بصمتي وحيرة أفكاري.

قلت في نفسي: أنا صابئي مندائي وسط مجموعة مُسلمة بالكامل، وعند عودتنا بعد انتهاء الدراسة سأعمل في بلد إسلامي وأكون وسط المُسلمين، سأكون ضابطًا في الجيش وهو عمل رفيع وفي مكان حساس جدًا هو القوة الجوية، ترى هل يمكنني العوم عكس التيار أو الاستمرار في هذا الطريق دون أن أكون ضمن اتجاه التيار العام؟ لا أستطيع أن أكون في وضع يخالف جميع أقراني في كل شيء، وبالنتيجة فإني لا أستطيع المُضي وحدي كبطة سوداء ضمن سرب أبيض، عندها قررت النهوض ولو متثاقلاً، تناولت كتيبًا، وفي هذه اللحظة أصبحت بعثيًا.

لم يكن يعني لي شيئًا سواء كنت بعثيًا أم غير ذلك، ما دمتُ إنسانًا وعراقيًا ومندائيًا، شربت من ماء دجلة والفرات حتى صار ماؤهما يجري بعروقي، واِصطبغتُ[1] بمياههما الحَيّة فزادني طهارة وإخلاصًا، كيف لا وأنا سليل هذه الأرض العتيدة، قلت في سري مثلما أنا فخور بنفسي دائمًا سأكون أمينًا على عملي وتاريخي المُشرف ووطنيتي العالية. هكذا بقيت طوال فترة عملي رغم أن كل الأمور المعنوية التي اعتدتُ بها قد تحطمت لاحقًا بشكل شبه كامل، ولم

:- اِصطبغتُ: الصباغة وتقابل التعميد في المسيحية وهو الرسم الذي يتم فيه الانتساب للديانة المندائية وكذلك للتبرئة من الخطايا وتتم بالماء الجاري.

أندم أبدًا ولغاية اللحظة أني خدمت بلدي العراق من خلال تطوعي كضابط مهندس في صفوف الجيش العراقي الباسل والقوة الجوية، بكل وطنية وكفاءة وإخلاص، رغم ما أصابني من حيف. لم أكن أبدًا أؤمن ولغاية الآن بأمور السياسة اللعينة ولا بأفكار أي حزب منها، من أقصى يمينها إلى أقصى يسارها، والتي كانت وما تزال جميعها وحسب رأيي مجرد أدوات في يد الأنظمة الشمولية الحاكمة للبلدان، في ممارساتها القمعية تجاه شعوبها.

إنَّ السبب وراء فخري واعتزازي بكل هذا وذاك؛ هو أنني استطعت ومن خلال تواجدي في الجيش وحزب السلطة الحاكم أن أمضي بحياتي وعملي بسلام نسبي، والأهم في هذا الأمر هو أنني استطعت أن أنقذ رقاب وحيوات كثير من الشباب والرجال العراقيين الأبرياء، وإبعادها عن حبل المشنقة أو رصاص الإعدام، كوني وجدت في نفسي الشجاعة الكافية لاقتحام المجهول، لم أجامل على حساب الحق ولم أبالِ حين كنت أسير بمفردي على ألسنة النار وأركب الأخطار مهما كانت، كي أنطق بالحقيقة وأنصف المظلومين، غير آبهًا بنتائج أفعالي وتحذيرات الأقربين أو تهديدات البُغاة.

لقد جازفت بحياتي وتأرجحت على حبل الموت مرات عديدة كي أنقذ حياة أحدهم؛ سواء كان مسلم شيعي أم سني أو كان مسيحي، عربي كردي أم تركماني، شيوعي بعثي أو من حزب الدعوة أو غير كل ذلك، لم يكن الدين أو الطائفة أو المذهب أو التوجه السياسي للأفراد يومًا هو من حفزني ودعاني أن أتخذ مثل هذه المواقف الحاسمة والخطيرة، بل كانت إنسانيتي النقية، مبادئي وقناعتي الراسختين وإرادتي القوية بضرورة قول الحق في جميع الظروف، والإدلاء بالشهادة الصادقة التي تصون كرامة الإنسان البريء وتحفظ حياته، لم أذعن إطلاقًا لتهديد أو تلويح بعصا غليظة، بل خاطرت حتى أحيانًا بقول أشياء أخرى خارج نطاق الحقيقة لحفظ حياة مظلوم من الإعدام، وسيكون بإمكانكم الاطلاع على بعض من تفاصيل هذه الأحداث التي حصلت معي لاحقًا.